منقذ تركيا الجديدة

مختارة من « تاريخ حياة مصطفى كمال »

للكاتب الألمانى « داجوبرت فون ميكوش »

يقرر ناشرو هذا الكتاب أن سيرة مصطفى كمال لاتزال إلى الآن غير معروفة تماما للجمهور البريطانى ، وهذا مايدعو إلى الدهشة حقاً ، إذا علمنا أن سيرة هذا الرجل ارتبطت كل الارتباط بالسياسة الخارجية البريطانية منذ الحرب العظمى التى أظهرت نقط الضعف الأساسية عند الحلفاء فى تقرير السلم ، والتى كانت أحد الأسباب التى أسقطت حكومة لويد جورج .

ولد مصطفى فى سنة ١٨٨٧م فى سالونيك من عائلة أفرادها من المزارعين البسطاء . وإن سلامة الطوية ، وصحة المعتقد فى أمه ، يعادلها ضغط فتاها على والده . ويظهر لهذا أنه ورث عن أبيه أكثر من أمه . وقد حدث حادث بسيط أنقذه من حياة الرعاة ، وفى سن الحادية عشرة دلل بنفسه على استقلال رأيه برفضه الرجوع إلى المدرسة التى كان فيها ، لأنه اعتقد أنه عوقب فيها ظلماً . وكان فى ذلك شيئا من النبوءة ، لأنه طول حياته كان فى ثورة دائمة ضد السلطة الحاكمة . وإذا كان من علامات الرجل الذي ولد ليحكم الرجال أنه لايستطيع أن يخدم مطمئناً تحت إمرة أى شخص آخر ، فأن مصطفى كان حقيقة الرجل الذى ولد ليحكم . فاختار حياة الجندية ، وتقدم تقدما جيداً فى الكلية الحربية حتى إن تفوقه فى الرياضيات أكسبه اسمه « كمال » ومنذ ذلك الوقت ، (فى سن العشرين) التحق بالكلية الحربية فى القسطنطينية .

تمثال للغازى مصطفى كمال باشا مقام فى انقره لتخليد ذكراه من صنع المثال « كانونيكا »

وهناك وجدت فطرته المتوقدة مجالا للثورة على طريقة الحكم السيئة ، وسرعان ماجذبه حزب تركيا الفتاة . ويظهر أن تقدمه فى طريق العسكرية — لأنه كان بدرجة « صاغ » فى سن الثالثة والعشرين — أوقف فجأة ، إذ قبض عليه مع نفر من إخوانه الضباط بتهمة

تشجيع جمعية الأصلاح السرية، وقد وقع ضحية لأحد جواسيس السلطان العديدين، ووقف في خطر الموت من اضطهاد عبد الحميد الجنوني. ولكن الحكم كان مخففاً إذ نفي إلى دمشق وهناك كان أكثر رضى وسروراً من واجب المعسكر المضجر المسئم الذي كان مقصوداً به، إذ حصل على التجربة الأولى في الخدمة العملية ضد الدروز المتمردين. وعند ما انتهت هذه المهمة زج بنفسه ثانياً في حركات تركيا الفتاة.

وبازدراء تام لكل الأوامر العسكرية نقل نفسه إلى مقدونيا التي كانت في سنة ١٩٠٧ مركز الزوبعة المقبلة، إلا أن خطط النمسا في البوسنه والهرسك هددت حدود مقدونيا. وبذا أوقدت شعلة حماس الوطنيين من حزب تركيا الفتاة، وتبع ذلك الثورة. « فبدأت كأنها ثورة ضباط وانتهت بعيد وطني » وأجبر السلطان على أن يمنح دستوراً وحكومة من رجال تركيا الفتاة. وبذلك سرعان ما وجد مصطفى نفسه على طرفي نقيض، فانسحب إلى طرابلس بينما انقسم المصلحون الآخرون على أنفسهم ووقفوا ضد أعوانهم السابقين.

تبع ذلك بسرعة ثورة عكسية « وخطا مصطفى كمال إلى ضوء التاريخ، فعقد مجلساً أعلى في « جيش الحرية » الذي زحف في سنة ١٩٠٩ على القسطنطينية وأنزل عبد الحميد من عالي عرشه. ولكن عند انتهاء هذا العمل عاد ساخطاً ثانياً، وعلى الخصوص كان غير موافق على سياسة أنور باشا الشهير حينذاك. ولم يجد عناء كبيراً في إخفاء خصومته حتى إنه في سنة ١٩١١ كان ملازماً ثانياً، وظهر مرة أخرى أن سيرته الحربية أوقفت. ولكن تركيا اندفعت في حروب كثيرة حتى لا يمكن أن تستغني عن قائد له قدرة مصطفى فحارب ضد إيطاليا في طرابلس وفي حرب البلقان بعد أن قبض أنور باشا على السلطة في يناير سنة ١٩١٣ وعمل معه على تخليص أدرنه.

وجاءت سنة ١٩١٤ فوجدته غير عامل، بل ملحقاً عسكرياً هادئاً في صوفيا بينما يملك أنور باشا وطلعت باشا وجمال بك كل السلطة في القسطنطينية. ولم يوافق هو على السياسة الألمانية التي زجت تركيا في الحرب العظمى بالرغم من تعارفه بالقواد الألمان الذي لم يغير وجهة نظره هذه. ولكن الآراء السياسية لم تدخل طبعاً في واجبه العسكري، فخدم بتفوق كقائد فرقة في غاليبولي ثم أبعد ثانياً إلى القفقاس لانتقاداته لرؤسائه. وهذه العادة التي لا تصلح (عادة المصارحة بالخطأ) قادته إلى اختلافات حادة بينه وبين فون فالكنهاين ثم بينه وبين أنور. ولذلك لم يتمتع أثناء الحرب أبداً بالفرص التي تكفلتها مقدرته.

وفي نهاية الحرب كان لمصطفى كمال، وهو لا يزال في سن الحادية والثلاثين، أعمال كافية وتجاريب مختلفة. ولكن السنين التي تلت هي التي دللت على مقدرته العجيبة في الصبر والأنجاز. وبما أنه لم يرض عن كل السياسات التي وضعت سابقاً فقد كانت له سياسة واضحة، ولكنها

جريئة بالنسبة لوطنه الحائر . وهى « خلق إدارة تركية خالصة الوطنية داخل حدودها الخاصة الطبيعية » ومثل كل عظماء السياسيين وجد أسهل الحلول لذلك وهذا الحل وجد فى الجو الذى حوله . وفى نفس الوقت كانت فكرته جريئة لا تتصور فى ذاك الحين عند مواطنيه حتى إنه بلا شك حرص على أن يخفى عنهم مقاصده الأخيرة . ولو تكلم فى ذلك الوقت عن الجمهورية والادارة المدنية ، فأنهم لم يكونوا ليفهموا منه شيئاً . هذا ما يجعل لمصطفى كمال الحق فى أن يكون من عظماء السياسيين — ذلك أنه أدرك أن هذا المشروع من العسير أن يقبله مواطنوه ، فقادهم اليه تدريجياً ، وبمهارة فائقة ، وثبات لا يتزعزع ، حتى إنهم لم يكونوا يدركون إلى أين يساقون — حتى وصلوا .

ولكن قبل الوصول إلى هذه النهاية قامت عقبات تكاد أن لا تقاوم ، وكان لا بد من التغلب عليها ، ولكن العقيدة تحرك الجبال .

(أحد التماثيل الثلاثة المقامة لتخليد ذكرى دكتاتور تركيا فى العاصمة الصغيرة . وهو يمثل الغازى كمنارس)

فعند ما احتل اليونانيون المكروهون أزمير « لمصلحة الحلفاء » كان يدرك تماماً مجرى سيره فى العمل ، فعبر وهو فى الثانية والثلاثين (روبكون) ثم دعى بالتلغراف إلى القسطنطينية فرد بما يأتى . « سابقى بالأناضول حتى تنال الأمة استقلالها » ، ومعنى ذلك أنه كان عليه أن يحارب اليونانيين والحلفاء وحكومته الاسمية نفسها ، وفى مدى ستة أشهر فقط خلق « برلمانه » الخاص فى أرضروم ، وسخر من التهديدات المختلطة ومداهنات الوزراء فى القسطنطينية — وقد سقطت قبل سخريته . فما أن بذر بذور الحرب حتى قام بجيش كبير ، وبينما كانت القوى الحاكمة تتناقش فى إصدار الأوامر الحكومية وتجزئة البلاد ، قامت فى أنقرة الجمعية الوطنية وتقدمت لتحكم بنفسها كأنه لا يوجد قوة أخرى ، وعندما اقترحت معاهدة سيفر إعدام الامبراطورية العثمانية كان رد مصطفى كمال الوحيد على ذلك مهاجمة مراكز الحلفاء فى أزمير ، فسمح الحلفاء لليونانيين بالحرب سراً لينتقموا لهم ، وكان الوطنيون بلا شك سيقهرون . فالجيش اليونانى الكبير المستعد كان كافياً لذلك لولم يضع مصطفى كمال أمام الحلفاء مشكلة جديدة بمهاجمة أرمينيا والدخول فى مفاوضات مع موسكو ، ورفض بتاتاً الشروط التى أملاها الحلفاء ، وهى التى كانت ستسبب

امتداد النفوذ الأجنبي فى تركيا الجديدة، وفضل أن يواجه مرة أخرى فى سنة ١٩٢١ الخطر اليونانى بنفسه. وكانت هذه هى تجربته العظمى التى كانت من المعجزات إذ انقلبت معركة سقاريا من هزيمة مروعة إلى نصر باهر، ومن تلك اللحظة وضحت النتيجة المحتمة، وكان سيسفك دم أكثر، و يشهد العالم مذابح مروعة فى أزمير إذ كان كمال على وشك الدخول مع بريطانيا العظمى فى حرب، ولكن بينما أجلت مفاوضات الصلح الرسمية إلى سنة ١٩٢٣ لم يكن من شك فى مصير تركيا نحو استقلالها أو فى من سيكون سيدها ؟ ولم ينتصر كمال بشجاعته وصبره فحسب، بل بيقينه ومعرفته أن الحلفاء المتعبين لا يميلون إلى الدخول فى معارك أخرى وانشقاقهم من جهة أخرى على بعضهم .

ولكن إذا كان الغازى قد أتم ما يصعب عمله فى الحرب، فأنه قد عمل ما يعد مستحيلا فى السلم ، فالعالم كله يعلم أنه قد قلب كل شىء فى تركيا مما يعد أنه لا يتغير مطلقاً، فمن الوجهة التاريخية كان فى تمس موقف بطرس الأكبر فى روسيا ، فعامة الشعب فى منتهى الجهل إذ أن ٩٠ فى المائة من الأميين — وكان الدين يتغلغل فى عقولهم حتى لا يدركون سواه ، فرغب أن يجعلهم فى مركز يتفق مع مقتضيات المدنية الحديثة و يجعل لهم شيئاً من الفرصة لمكافحة الوجود ، أضف إلى ذلك أنهم إذا أرادوا أن يعيشوا كأمة مستقلة كان حتما أن يتم هذا الانقلاب فى أقصر وقت ممكن ، وكان عليهم أن يتخطوا قروناً من التطورات، فانقلبت الملكية التى عمرت قروناً طويلة إلى جمهورية ، وألغيت الخلافة ، وتحول الاسلام الراسخ إلى الأغراض الدنيوية، وطهر الجيش من المؤامرات، وخلعت النساء الحجاب — حتى الأذرع والأكتاف صارت عارية — فى أرض كانت فيها المرأة منذ سنين قليلة تعاقب بغرامة فى القسطنطينية إذا رفعت الحجاب عن وجهها فى الشارع ، وأدخلت مجموعات من القوانين فى الحال وأبطل تعدد الزوجات ، وألزم كل الرجال والنساء الذين تقل سنهم عن الرابعة والعشرين بتعلم الشكل اللاتينى الجديد للحروف الهجائية وهى التى كونها كمال فى ليلة واحدة ونفذها فى اليوم التالى . وتم عمل أجرأ من المتقدم — إذ الزم المسلمين أن يهجروا الطربوش و يلبسوا القبعات وسوف لا يلتقى الاثنان أبدا ، رغم الاه، ولكن مصطفى كمال يجعلنا حريصين فى استعمال كلمة « أبدا » بالنسبة إلى « ميزات الوطنية » ، او بالنسبة إلى العادات والأمزجة الوطنية التى كنا نظن أنها ثابتة ؟

(تمثال آخر لمصطفى كمال باشا رئيس الجمهورية — مقام فى أنقره (للمثال كانونيكا) ويمثل الروح المتحركة للمدنية الغربية فى تركيا)